بوسطة عين الرمانة: الأشياء العميقة لا تريد نسخا عنها

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

هل يُعقل أن لا يكون للأشياء المأساوية بفعل ما عاشته عالم خاص بها، تخزن خلاله بصمت مُهيب ذكرياتها الحميمة في برودة مادتها؟ لا. لا بد أنها تملك عالما غير ذلك الذي نعرفه نحن البشر والمُلتبس أمامنا دوما في أوضح ظهوراته.

إن زار الحصيف الأشياء العميقة، أو حتى نسخها، سيتمكن من التقاط ذبذبات مُتهالكة/ هامسة وكأنها لهامات شبحيّة استوطنت أرجاء الأشياء العميقة التي تئنّ تحت ثقل الصدء، ونمو الحياة العضوية كالأعشاب البرية من حولها وإليها كفعل مواساة وتحد في آن واحد.

غير أن تلك الذبذات لن تفشي للزائر شيئا من ذكرياتها. فهي ملكها وحدها. ستكتفي باختراقه في إعياء وحزن عميق لن يطال مهما عمق، قرارة أهوالها.

هذه هي المشاعر والأفكار التي أحاول الآن أن أوضحها والتي اختبرتها عندما دخلت منذ أكثر من 14 سنة إلى قلب نسخة مُطابقة و"مُلطّفة" لبوسطة عين الرمانة التي أحضرها فنان التجهيز حسين صولي، الذي قدّم العديد من المعارض الفنية التجهيزية قبل أن يغادر نهائيا لبنان، مثله كمثل الآلاف من جيل الحرب، مُدركة أنها ليست إلاّ نسخة عن رمز اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، خفّف من حدة مشهدها.

غير أنني لحظة دخولي إليها واطلاعي على المواد التوثيقية "المتضاربة"، التي اعتادها اللبنانيون في محاولاتهم لطمس الحقائق حول الحرب، دخلت في حالة كآبة غريبة.

«بوسطة الثورة» أكدت بدخولها سريعا إلى واجهة الحاضر، أن الأشياء العميقة تحتاج لوقفات تأمل بعيدا عن المُباشرة

صور فوتوغرافية للشهداء الذين قضوا فيها وصور عن البوسطة وكتابات وخرائط لمسيرتها المشؤومة وتواريخ وأشياء مرمية، كان من شأنها أن توقف الزمن وتبدّل الجغرافيا لتأخذني إلى عالم موبوء بأفكار انصبت جميعها إلى عبثية تلك الحرب وإلى هول الحقد الذي سكن قلوب اللبنانيين.

ولم تستثن أفكاري تلك كراهية فئة من اللبنانيين آنذاك، وإلى اليوم مجرد الإشارة إلى هوية لبنان "العربية". كلمة كان التنازع على مصداقيتها سببا مباشرا لاندلاع الحرب ولارتكاب المجازر الفظيعة.

تحت عنوان "كي لا ننسى"، قدّم الفنان حسين صولي النسخة البديلة عن البوسطة إلى قلب ساحة مرآب في بيروت. يومها كانت أبواق سيارات المارة بالقرب منها من الفظاظة ما يكفي لتكون أشبه بشتائم فاجرة تعبر مجاورة لها. مجاورة ومُشيرة أيضا لتلك الأصلية القابعة بصمتها والراكنة في مرقدها بمكان ما مكسوّة بالأعشاب البرية ومصابة باهتراء مُضاعف، لأن اللبنانيين تنكّروا لها وعفوا عن ما مضى وكأن الذي مضى يُمكن تجاهله وخنقه بوثيقة دولية وضعت في إحدى الجوارير فبقي التربص قائما بسلم لبنان وبعروبته، وبهنائه الهش.

أحضر صولي البوسطة التي قال إنه بحث طويلا على شبيهتها حتى عثر عليها ليضعها على بساط أحمر. تململ الفنان آنذاك من ندرة تغطية الإعلام لهذا الحدث. وكيف لا؟ فرمزية الحدث الفني الذي وضعه لم يدق آنذاك باب صُناع الحرب بقبضة مدوّية، وكان الشعب يومها، أي منذ خمسة عشر سنة، غارقا هو الآخر في سبات الذاكرة العميق.

بوسطة أخرى، خلافا لبوسطة حسين صولي، لاقت تغطية إعلامية هائلة رغم أنها حملت جانبا منقوصا ومهما من الحقيقة. أقصد هنا البوسطة التي جرى على تسميتها بـ"بوسطة الثورة" التي قامت بجولة من شمال لبنان إلى جنوبه. بوسطة قالت عنها منى فياض "إنها وجه لبنان المستقبل.. جمعت جميع شرائح الشعب.. وهي نقيض لبوسطة عين الرمانة لأنها شكلت نموذجا للانفتاح والخروج من الطائفية".

لست من المعجبين بفكرة تشبيه البوسطة هذه ببوسطة عين الرمانة، لأن استبعادهم الهوية العربية للبنان لا يزال جرحا مفتوحا يترتب عنه في الحاضر "الثوري" المباشر انقسامات حادة قادرة بأن تقسم ظهر الثورة.

"بوسطة الثورة" أكدت لي من جديد بدخولها سريعا إلى واجهة الحاضر، أن الأشياء العميقة تحتاج لوقفات تأمل بعيدا عن المُباشرة. الأشياء العميقة ترفض النسخة المخفّفة عنها وتريد إن ذكرت أن تُطال جميع حقائقها التي تتخطى ما حملته بوسطة الثورة بأشواط. تريد أن نكون صادقين وعميقين بحقها وأن نبدأ بالتأمّل في ما قاله يوما أحد الصحافيين "العميقين"، "لا بوسطة عين الرمانة هي البداية، ولا اتفاق الطائف هو النهاية".

نعم، الأشياء العميقة تريد أن تترك بسلام حتى يحصل التوافق الحقيقي الذي يتربّص به ويخطّط له، بناء على جشع المجتمع الدولي من جهة، وأعداء الداخل من جهة أخرى.

الأشياء العميقة التي منها البوسطة الأصلية لو نطقت لرفضت تشبيهها ببوسطة الثورة "طرية العود" التي خوّنها البعض، وتمنى غيرهم أن تكون فعلا برعاية جهة غربية، وأعاق البعض الآخر وصول مسيرتها إلى صور في جنوب لبنان الواقعة تحت سيطرة حزب الله لأسباب شنيعة تتعلق بارتهان لبنان إلى إيران المعادية للعروبة كمبدأ وانتماء. كل هؤلاء استندوا في مواقفهم على عدم قدرة الأشياء العميقة على أن تشهد وتنطق جاهرة بأحوالها وتاريخها وتحتاج لوسيط عجائبي لكي يُنطقها.

يبقى المعنى لبوسطة الثورة مجتزئا محيلا إياها إلى ركاكة الرمز. ويبقى الفرح العميق أسوة بالأشياء العميقة مؤجلا لحين التحقّق، عندها فقط يستحق اللبنانيون شعارات كـ"تنذكر وما تنعاد" و"امسحها من قلبك كي لا تتكرّر".

«حريق في مرسيليا» اللوحة وكأنها غارقة

الكلمات لا بد أن تنتهي جسدا

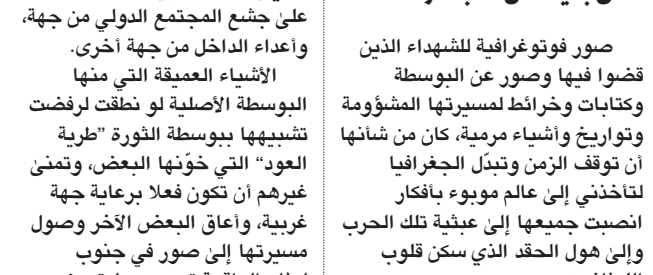

بوسطة عين الرمانة رمز لسبات الذاكرة العميق

حكايات وأساطير من الشرق تشعّ جماليّا في باريس

معرض يقيم مساحة للحوار بين الجمهور الفرنسي والفنانين في المنفى

تستضيف صالة "نظرة أولى" في العاصمة الفرنسية باريس معرضا بعنوان "من الطوفان إلى الطيران، أساطير وأغنيات وحكايات أخرى" الذي يشارك فيه عشرون فنانا تتنوع جنسياتهم بين الشرق الأوسط والمغرب العربي، وفيه مجموعة من أعمال النحت والتشكيل والتجهيز التي تروي جماليّا علاقتهم بالعالم والمنفى الذي وجدوا أنفسهم فيه قسرا.

عمّار المأمون
كاتب سوري

باريس – ما يجمع بين الفنانين المشاركين في المعرض الجماعي "من الطوفان إلى الطيران، أساطير وأغنيات وحكايات أخرى" المقام حاليا في صالة "نظرة أولى" بالعاصمة الفرنسية باريس، لا يرتبط بوضعهم القانوني أو الإداري كعادة المعارض المشابهة التي تهيمن فيها صفة "لاجئ" على الأفراد، إذ يسعى المعرض الذي يشارك فيه عشرون فنانا من الشرق الأوسط والمغرب العربي للجمع بين الفنانين وأعمالهم على أساس موضوعة مشتركة، ورؤية نقدية وجمالية عن مكانهم كفنانين في هذا العالم المحكوم بالمآسي والتطور التقني، ليتحوّل التعبير الجمالي إلى شكل نقدي يحاكم فيه الفنان نفسه كموضوعة سياسية وثقافية، مشيرا إلى الأسباب التي جعلت "ذاكرته" و"حكايته" تظهر بالشكل الذي هي عليه.

التعبير الجمالي يتحوّل في المعرض الجماعي إلى شكل نقدي يحاكم فيه الفنان نفسه كموضوعة سياسية وثقافية

وتقول إيلينا سوروكيان منظمة المعرض إن الهدف منه "خلق مساحة للتبادل والتضامن بين الفنانين الذين يجتمعون حول موضوعة الاستخدام الحالي للأساطير والحكايات التي تشكل المتخيّل الجمعي في مناطق مختلفة من العالم".

وتضيف "المقاربة الفنية المعاصرة للأساطير لا تتماشى مع مفهوم الأسطورة الشخصية للفنان التي ظهرت في السبعينات، وعوضا عن محاولة العمل على الفردانية أو جعل هذه المفاهيم معاصرة، يميل الفنانون نحو تطوير مقاربة تحليلية أساسها تغيّر الرؤى الغربية للعالم، عبر دراسة التطورات الطبية، والجانب الأسطوري والخطير لوسائل التواصل الاجتماعي اليوم".

روايات فنية

المعرض الجماعي من تنظيم جمعية "الأبواب المفتوحة على الفن"، وهي جمعية تأسّست في باريس من قبل مجموعة من الفنانين والناشطين في المجال الفني السوري والفرنسي، في محاولة لتعريف السوق والمتلقي الفرنسي على الأعمال الفنية القادمة من سياقات مختلفة عن تلك التي اعتاداها سعيا منها لإدخال الفنانين الذين غادروا أوطانهم ضمن سوق الفن الفرنسي ومتلقيه بعيدا عن التنميط التقليدي المرتبط بتصنيفي "الغريب" و"المحلي".

وتقول دنيا الدهان، وهي واحدة من مؤسسي جمعية "الأبواب المفتوحة" حول سؤالنا عن طبيعة نشاط الفنان السوري في فرنسا، إن هناك العديد من العوامل التي ساهمت في أن يحافظ على مهنته، وهي على الأغلب عوامل ذاتية، منها أن الكثير من الفنانين السوريين اعتبروا أن استمرارهم بالفن هو وسيلة مقاومة، وبالتالي أصبح هناك عامل مرتبط بالمسؤولية.

وتضيف "من فهمنا لتركيبة الفنان ندرك أنه لا يستطيع أن يستمر دون ممارسة الفن، فالأمر ليس خيارا بالنسبة له، وإنما واقع يتعايش معه، حتى ولو كان ذلك على حساب استقراره المالي. أما في ما يخصّ دور جمعيتنا والذي لا أستطيع أن أجزم به، أظن أن النشاطات التي تم تنظيمها منذ بداية عام 2018 قد شكلت دافعا للاستمرارية بهمّة أكبر، ابتداء من التضامن بين الفنانين أنفسهم والذي تجسّد من خلال لقائهم ودعمهم المتبادل أثناء النشاطات، كذلك التواصل والحوار مع الجمهور الفرنسي وعلى الأخص المختصّ بسوق الفن الفرنسي كان مهما لكلا الطرفين".

ويأتي المعرض كجزء من محاولات الجمعية لمخاطبة السوق الفرنسي بأكمله، وتقول الدهان إنهم يحاولون في بعض الأحيان التوجه لفئة محددة في ما يخصّ فنانا محدّدا أو عملا فنيا محدّدا. وتضيف "حاولنا بشكل عام في الفعاليات السابقة أن نقدّم الفنانين بوصفهم فنانين فقط، بمعزل عن أي صفات أخرى. نستبعد دائما مفردات نرى أنها تحجب إمكانية رؤية الفنان بشكل مجرد، ولكن في الوقت ذاته نحترم حكايتهم الشخصية التي هي جزء من نتاجهم الفني بشكل مباشر أو غير مباشر".

وسائط مختلفة

تتنوع الأعمال في المعرض والوسائط التي يستخدمها الفنانون، إذ نشاهد فيديو للسورية الفلسطينية بيسان الشريف بعنوان "حكايات حب في بلدان حارة" وهو جزء من مشروع أكبر بعنوان "دخلت مرة في جنينة" لكل من الشريف وكريستيل خضور، ونسمع فيه حكاية عن المغنية أسمهان، وطائرين وقعا في الحب ثم افترقا، لتتلاشى صورة أسمهان أثناء سماعنا لقصتها التي تتداخل مع قصة كريستيل خضور، وعلاقتها مع المغنية و"الحب" بوصفه مساحة سرية نسعى دوما لاكتشافها.

ونشاهد أيضا لوحة للفنانة الإيرانية حره ميرشيكاري، والتي يتلاشى فيها الجسد على حساب الكلمات أو العكس.

حكايات أسمهان المتلاشية كما تراها بيسان الشريف

الفنانة إيلا ديل بوركا تقترح عملا تجهيزا، هو عبارة عن آلة كتابة معلقة بالورق الذي كتبت عليه قصائد

تتكوّن الكلمات صعودا لتصبح جسدا، لا ندري إن كان معلقا أو متكئا، لتبدو اللوحة أشبه بكولاج من نوع ما، عنصر فيه فائق الواقعية، تحيط به كلمات وخطوط لنبقى كمتلقّين عالقين عند نقطة اللّا اكتمال، فأي من تلك العلامات أمامنا هي مفتاحنا نحو النهاية، أو لحظة الاكتمال، التي تختلف في عقل كل متلقّ بحسب اختياره لترتيب العناصر التي يراها في اللوحة؟

ويلفت الانتباه في المعرض عمل للفنانة إيلا ديل بوركا، ويتألف من آلة كتابة معلقة بالورق الذي كتبت عليه قصائد، مجرد شكل العمل يطرح لدى المتلقي تساؤلات عن الشكل، فما هو طول القصيدة اللازم كي يتحمّل الورق وزن الآلة الكاتبة، خصوصا أن لا مجال للخطأ أو تغيير الورق، فهل تكتب مباشرة أم "تطبع" الفنانة كل كلمة على حدة، ما يحيلنا إلى مفهوم النهاية، فمتى قرّرت بوركا أن تنهي الطباعة لتضمن أن طول الورق أصبح مناسبا وهل هذه النهاية مدروسة أم مرتجلة قطعت النصّ من منتصفه، وهل سيتمزّق الورق إن استمرت بالكتابة؟

نشاهد أعمالا للمغربية حنان الفارسي بعنوان "حريق في مرسيليا" نتلمس فيها التناقض بين مفهوم الحريق وبين الألوان المستخدمة لتبدو اللوحة كأنها غارقة، أو ناجية من الحريق وسالت ألوانها بفعل الماء، وكأننا أمام وثيقة عن حدث ماض بقي أثره، لتترك مساحة في المخيلة لمحاولة إعادة بناء الصورة "الأصل".

هذا ونظمت جمعية "الأبواب المفتوحة على الفن" على مدار السنوات السابقة عددا من المعارض المشتركة والجلسات الحوارية، التي عرّفت فيها الجمهور لا فقط على أعمال الفنانين، بل أيضا مساحات عملهم، وأسلوب إنتاجهم والصعوبات التي يواجهونها.